

تمظهرات السؤال الفلسفي في النص الشعري الحدائي

أ.م.د. صفاء عبيد الحفيظ
جامعة بابل/كلية التربية الأساسية
قسم اللغة العربية

أ.م.د. إسماعيل حسين جابر
الجامعة المستنصرية/كلية الآداب
قسم الترجمة

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مواجهة الأسئلة الفلسفية والحقائق الكبرى، كالحياة والموت والألوهية وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان ومصيره. إنها محاولة لتفسير شامل للوجود. وهي بنت العقل الخالص، العقل الذي يعلو بنا فوق ذاتنا، ويمنحنا الوعي بالوجود العميق ويوغل بنا إلى حقائق الأشياء. وهي أسئلة تضمنها الشعر العربي الحديث الذي يشكل سؤالاً كبيراً يبحث في تفسير العالم والوقوف على أسرار الحياة والكون بكل تفاصيله، حتى أصبح السؤال الفلسفي ظاهرة أسلوبية تستحق الوقوف عليها.

الكلمات المفتاحية: الدلالة- الاستفهام- الفلسفة - الإنكاري- التأويل- الاستدعاء- السؤال -التأثير.

Abstract

This study aims at encountering the philosophical questions and the big facts like life, death, divinity, and the reality of the universe, the human being and his destiny. It is an attempt for a comprehensive explanation of the human existence. These questions combine between the mind which takes us above our egos and gives us awareness of the deep being and the reality of everything, and between imagination which overcomes the reality and penetrates in to our egos in a form that has its particular significances.

These question are found in the modern Arabic poetry which poses a big question that tries to find an explanation of the world and the secrets of life and the universe with all its details to reveal the inside of the human being

and the surrounding world, therefore, the philosophical question has become a stylistic phenomenon that deserves to be taken into consideration.

Key words

Semantics, interrogation, philosophy, negation, interpretation, rendering, question, effect

1-مدخل إلى ماهية السؤال:

مما لا يخفى إن السؤال يحمل معنى الطلب والاستدعاء كما في قوله تعالى ((تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)) بمعنى تطلبون حقوقكم به⁽¹⁾، ألا إن المعجمات اللغوية أعطت للسؤال معاني أخرى منها المحاسبة والاستفسار والدعاء والاستخبار والاستعطاء، وهي معان ترتبط بالتخاطب والتفاهم وتبادل الآراء والأفكار والتعلم والانتفاع.

أما السؤال في الاصطلاح الفلسفي فهو ما يطلق عليه في الفرنسية (Question) وفي الإنكليزية (Question) وفي اللاتينية (Quaestio) ((يعني ما يسأل، وهو استدعاء المعرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، والسؤال للمعرفة قد يكون للاستفهام والاستعلام تارة، أو للتعريف والتبيين أخرى))⁽²⁾.

وقد يكون معنى السؤال ((الطلب، أي طلب الأدنى من الأعلى وقد يقارب معناه معنى الأمنية، إلا أن الأمنية تقال فيما قدر، والسؤال يقال فيما طلب))⁽³⁾

ويضيف الدكتور جميل صليبا: إن السؤال قد يدل ((على الاعتراض وبالسائل على المعارض، فيكون السائل من نصّب نفسه لنفي الحكم الذي ادّعه المدّعي بلا نصب دليل عليه، وقد يطلق على ما هو أعمّ، أي على كل ما تكلم به المدّعي))⁽⁴⁾

ولعلّ سقراط هو أشهر من مارس السؤال، للكشف عن الحقيقة منطلقاً من أن الفلسفة ((تطبيق عملي Praxis بالمعنى الأسطوري للكلمة أكثر مما هي شعر poiesis، هي نشاط أكثر مما هي خلق، هي ممارسة أكثر مما هي نتاج، وهي لا تحتاج لتكون ما هي إلا غاية خارجية، إنها تكتفي بذاتها، ولا تنتج شيئاً آخر وعندما يحصل ذلك يكون زائداً))⁽⁵⁾ فقد

وصف بأنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وجعل محورها الإنسان، إذ وجد إن المعرفة الحقيقية تكمن في التساؤل عن ماهيات الأشياء وعدم الاكتفاء بالمظهر منها. كما أن سقراط يبحث عن المفهوم في كل أمر والمعنى من كل قضية والماهية في كل شيء ووجدتها في الطبيعة الثابتة للأشياء وراء تغير المظاهر والبداهيات. وتتميز الماهية بالتجريد والضرورة والكلية وهي قريبة من الفكرة العقلية والمفهوم المتصور والمعنى المتمثل .

ويشترط للسؤال أن يكون ((مطابقاً لموضوعه، وأن يكون واضحاً ومعقولاً، لأنه إذا لم يكن كذلك أدى إلى المغالطة، كسؤالك عن البحر مثلاً: هل هو أرض أم سماء، فهو سؤال غير معقول))⁽⁶⁾

فالسؤال هو دائماً تجل لمشكل مطروح تجب معالجته ومن ثمة يقتضي تفاعلاً بين الذات المعنية به، أي انخراطها التخاطبي في التفاوض حوله. يكون السؤال بذلك إطلاقاً للمفاوضة⁽⁷⁾ إذ ينطوي السؤال على قيمتين معرفيتين هما: الطلب والتداعي، والفلسفة بانبنائها على السؤال ((قائمة مقام الشرط الذي تحصل به المعرفة، مادامت حقيقة السؤال هي أنه طلب السائل معرفة المسؤول عنه، حينئذ يصح أن يقال بأنه لا معرفة بغير فلسفة كما يصح القول بأنه لا معرفة بغير طلب.. أما التداعي فإن للسؤال قوة عجيبة على التداعي قد لا نجدتها في غيره من أساليب الكلام، فكل سؤال حيث يظن أنه يوقف الاندفاع في هذا التداعي حتى إن السؤال الواحد قد يتوالد في كل اتجاه ويتشعب تشعباً))⁽⁸⁾ وليس السؤال غاية في ذاته إنما هو أداة من أدوات البناء.

إن التوليد الفكري محايث دائماً لمسار المسألة، فبالسؤال تستدعي الأجوبة وتبنى البدائل التي تطور المعرفة. الأمر الذي يعني حسب مانويل ماريا كاريلهو M.M.Carrilho أن ((العقل حركة للسؤال لا تنضب))⁽⁹⁾

إن الفلسفة أساساً مبنية على التساؤل لاسيما السؤال: ما هو الشيء؟ وهو السؤال الذي تم في ضوءه بلوغ تعيينات الكون العامة. يقول المناطقة: حينما يُسأل عن ماهية الشيء يكون

مورد السؤال مختلفاً، فتارة يسأل عن مفهوم اللفظ ومعناه، أي: حينما نسأل: ما هو الشيء؟ يكون المراد (ما هو) الاستفهام عن المعنى اللغوي أو الاصطلاحي لذلك اللفظ؟ ولم نعرف معناه.

فمورد السؤال ربما لا يكون عن معنى اللفظ، بل عن حقيقة المعنى؛ وذلك لأننا نعرف معناه، إلا أننا نجعل حقيقته وكنهه، فلو سألنا (ما هو الإنسان؟) لما كان يعني ذلك إننا نجعل معنى الإنسان اللغوي؛ إذ كلنا يعلم أن لفظ الإنسان قد وُضع لهذا الكائن المخصوص الناطق الذي يقف على رجليه بقامته المستوية، بل السؤال عن ماهية الإنسان وحقيقته، وعندها لا يكون الجواب الصحيح عن هذا السؤال إلا واحداً فلا يمكن أن تكون له عدّة أجوبة صحيحة، ويسمى جواب هذا النوع من الأسئلة بـ(التعريف الحقيقي).

ولعل الفكر الإنساني لاسيما الفلسفي يؤكد مكانة السؤال ودوره في طرح القضايا الكبرى التي ابتدأت بسؤال الكون وأصل وجوده الذي شكل نقطة انطلاق لاختراق المعرفة والحكمة، إذ أصل السؤال هو الشك أو الاستغراب أو الدهشة التي تولد الاختلاف وعدم الثبوت، ولعل أغلب المفاهيم الفلسفية هي في الأساس سؤال نابع من سؤال.

والفلسفة بطبيعتها تعني بالبحث عن ((ماهية الأشياء وأصولها وعلاقتها بعضها ببعض بالإنسان)) لذلك نجد أن هناك علاقة وطيدة بين السؤال الفلسفي والميتافيزيقيا التي ترمي إلى معرفة الأفكار التي تتجاوز نطاق الحس والمحسوس، وتقع في عالم ما فوق التجربة وما وراء الطبيعية، المسائل اللامادية مثل النفس والله، وأيضاً المسائل التي لا تدرك بالحس، مثل الجوهر، والعلة، والغاية، أو الأشياء التي لا توجد مستقلة عن غيرها مثل المادة، والصورة، والحركة⁽¹⁰⁾ فالمفكر حين يتجاوز النظر في هذا العالم الذي يدركه بحسه، إلى ما وراءه حيث يوجد عالم المعقولات، وينشر العلم بمبادئه الأولى وعلته القصوى. أي حين يتخطى ما في العالم من تغير وكثرة وتنوع إلى ما فيه من ثبات، ووحدة، وتجانس، حين يفعل هذا يكون فيلسوفاً ميتافيزيقياً.

ولا أحاول هنا أن أدعي إن الشعر يتخذ من الفلسفة مصدراً له بقدر ما يحاول أن يعقلن مساره المترهل وأن يخلق مستويات تعبيرية إبلاغية تجمع ما بين التعقل والعمق الشعوري .

ولعل السؤال الفلسفي في الشعر يدفع المتلقي إلى التأويل للوقوف على الدلالة العميقة له، إذ يمتلك التأويل ميزات عدة أهمها تعدد الفهم وإيمانه بالاختلاف ونفيه للمطابقة، وهذه الميزات جعلته مدخلا لدراسة الفكر الإنساني بشكل عام، والفلسفي بشكل خاص، لذلك جعلته معظم فلسفات ما بعد الحداثة منطلقاً لإعادة دراسة الفكر الفلسفي وقراءته، وتطبيق مفاهيم النقد والتفكيك والتحطيم والتحليل من خلال ممارسة مناهج التأويل وعملياته الفكرية، لذلك عده البعض الأساس الذي تقوم عليه فلسفة هذه المرحلة، وأباً للفكر الفلسفي المعاصر.

هنالك خصيصة لافتة للانتباه في اللغات الطبيعية، التي تتطلب تأويلاً على المستوى الأولي والاعتيادي للحوار. هذه الخصيصة هي تعدد المعاني، أي سمة كلماتنا في امتلاك أكثر من دلالة عندما نفحصها من خارج استعمالها في سياق محدد.

إن تعدد معاني الكلمات يستدعي بالمقابل دور السياقات الانتقائي إزاء تحديد القيمة الراهنة التي تحوزها الكلمات في إرسالية محددة، موجهة من طرف متكلم بعينه، إلى مستمع يوجد في حالة خاصة، إن الحساسية إزاء السياق هي المكمل الضروري والرأي المعاكس المحتم لتعدد المعاني.

غير أن السياقات تستخدم بدورها حركة متميزة تعمل على تبادل إرساليات ملموسة بين المتخاطبين، إذ يكون النموذج هو لعبة السؤال بين الشاعر والمتلقي، لذا يكمن التميز في التأويل الذي يحرص المعنى على وفق القرائن للوصول إلى التمظهر العميق للنص.

إذاً فالتأويل يقوم في أساسه على افتراض إن الكلام له معنيان أحدهما هو المعنى الظاهر والآخر هو المعنى الخفي أو المستتر أو الباطن مما يعني أن اللغة لها هي أيضاً وظيفتان إحداها هي التعبير والأخرى وظيفة رمزية تتطلب ما ترمز إليه⁽¹¹⁾. لذا سيكون ملاذنا للوصول إلى عمق النصوص التي تضمّنت السؤال الفلسفي.

2- السؤال الفلسفي ودلالة اللغة في النص الشعري:

إن الفلسفة كما عرفناها هي محاولة لمواجهة الأسئلة الكبرى والمقولات الكبرى والحقائق الكبرى، كالحياة والموت والألوهية وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان ومصيره. إنها محاولة لتفسير شامل للوجود. وهي بنت العقل الخالص، العقل الذي يعلو بنا فوق ذاتنا، ويمنحنا الوعي بالوجود العميق، ويوغل بنا إلى حقائق الأشياء. وهي أسئلة تضمنها الشعر العربي الحديث الذي يشكل سؤالاً كبيراً يبحث في تفسير العالم والوقوف على أسرار الحياة والكون بكل تفاصيله، حتى أصبح السؤال الفلسفي ظاهرة أسلوبية تستحق الدراسة والتحليل.. وهذا ما سنوضحه من خلال النصوص الشعرية المنتخبة، وهي كالآتي:

ففي قصيدة أدونيس مثلاً، يتخذ الشاعر من موضوع الوجود الفكرة الأساسية التي تتضمن سؤاله الفلسفي الذي يشكل واحداً من أهم موضوعات الفلسفة التي تحاول أن تدرك الأنا ووعيه وتركز على وجود الأشياء غير الواعي، إلا أن الشاعر يعمد إلى توظيف الفكرة بلغة مرمرية ومشفرة:

أنا التراب، أسألك أيها الكائن:

لماذا تصرّ على أن السماء هي التي تبتكرك

فيما الأرض هي التي تحييك؟⁽¹²⁾

لقد وظف الشاعر التشخيص ليضفي صفة من صفات الإنسان على ما هو غير عاقل (التراب) أو أنه يتخذ من التراب قناعاً له ليتبنى قناعاته، ليقوم بمهمة إثارة السؤال في حين جعل الإنسان الذي يصفه بـ(الكائن) متلقياً للسؤال الذي يتضمن على مستوى الظاهر سؤالاً عن أصل الوجود: هل هي السماء أو الأرض؟ وهو سؤال يثير مجموعة من التساؤلات، لما جعل الشاعر التراب هو الذي يسأل وبصيغة التعالي (أنا التراب)؟ ولما نادى الإنسان بصيغة الاستخفاف (يا أيها الكائن)؟ وهل قصد السماء لذاتها وكيف ابتكرته؟ وما سر المقاربة بين التراب والأرض؟

وكما أرى فإن هناك مقاربة بين الأرض والتراب اللذين يقرنهما بالحياة ويحاول أن يقدم سؤاله (لماذا تصر ..) الذي يوحي بأنه استفهام إنكاري يمكن أن نربطه بالدين⁽¹³⁾، وكأنه ينكر

وجود الخالق ويحاول إقناع المتلقي بذلك من خلال الاستخفاف بالإنسان الذي يعلق وجوده بالسماء التي تعد رمزاً للرب. والشاعر كما هو معروف عنه، كثيراً ما يشير إلى عدم قناعته بوجود الله ويحاول أن يؤكد انتماء جذور الإنسان للتربة التي يجب عليه أن يحافظ عليها لأنها سر وجوده.

إلى جانب ذلك يمكن أن يؤول النص إلى أن الشاعر حمل رؤية ثائرة تحمل معاني التحفيز للدفاع عن الواقع والوطن فكرياً وإنسانياً. فالسؤال هنا يمتاز بانفتاحه على إجابات عدّة بحسب قناعة المتلقي ومدى تأثير النص فيه.

وفي قصيدة (الأرض المحجبة) تطالعا الشاعرة نازك الملائكة بسؤالها عن الأرض ودورانها وعلاقتها بأنانية الإنسان واستغلاله، وذلك على وفق رؤية فلسفية خاصة بالشاعرة:

أين تلك الأرض؟ من حجّبتها؟

نحنُ شدناها برنات الفؤوس

وأجعنا في الدجى أطفالنا

لنغذيها وجدنا بالنفوس

وزرعنا وحصدنا عُمرنا

وجنينا ظلمة الدهر العبوس

وسقينا أرضها من دمننا

ومنحناها لأرباب الكؤوس

أين تلك الأرض؟ هل حان لنا

أن نراها أم ستبقى مُغلّقة؟⁽¹⁴⁾

تربط الشاعرة بين أسرار الكون وخباياها وبين حنينها، ولعل بنية السؤال المتمثلة بالاستفهام (أين تلك الأرض..) هي بنية مكنت الشاعرة من توليد تراكيب فعلية متتالية مقترنة بالضمير (نا) (شدناها، وأجعنا، جدنا، زرعنا، حصدنا، جنينا، سقينا ومنحناها) وهي سلسلة من الأحداث التي تشكل تاريخ وجود الوطن، والتخلي عنه لمن لا يستحقه؛ فسؤال الشاعرة

عن الأرض هو سؤال عن الوطن الذي تجده قد ضاع وهي بذلك تبحث عن المثالية وفي الوقت نفسه تعكس حنينها.

أما البريكان الذي امتاز شعره بالأبعاد الفلسفية، يعد السؤال الفلسفي جزءاً من تلك الأبعاد، إلا أنه تميز بخروج سؤاله نحو النقد الفلسفي الذي يسعى فيه للحفاظ على كينونة الإنسان والحدود الدنيا لإنسانيته بعد أن تعرض لشتى ضغوط الحياة وظروف القهر التي تهدد وجوده، نذكر على سبيل المثال قصيدة (هواجس عيسى بن ازرق):

أموت مرتين؟ لا أموت مرتين

تعول أعماقي أسى أيتها الحياة

أريد أن أهواك رغم السوط والسلاح

والمعول الثقيل والشتائم المرة

أريد أن أبقى على الحب. أستطيع

بعد قبول النور؟ لو أرجعني الطريق

يوماً إلى الدنيا وقد أدركني المشيب؟

يادي تجمدان في الكبل وتبكيان

هل تألفان الكبل يوماً ما؟ أتسيان

عذوبة الكتاب وانتفاضة القلم

وهزة الحماس وانبساطة السلام؟⁽¹⁵⁾

نجد في هذه القصيدة تجسيدا لمأساة الإنسان المهزوم سياسياً واجتماعياً، ربما لأنها شخصيات مؤثرة في مجتمعها فكرياً أو لأنها تحمل توجهات دفاعية عن هموم الأغلبية، وهذا ما انعكس على تساؤلاته التي حملت أفكاراً ذات رؤية فلسفية جمعت بين بعدين، الإنساني والكوني، فالنص يعيد صياغة العالم من خلال رفضه للرؤية الكونية المعروفة (أموت مرتين؟ لا أموت مرتين) فهو يعيش متناقضات بين حبه للحياة وعداء الحياة له، وبين رغبته في البوح والقيود التي تكبل انشغاده ورغبته وبين طموحاته والاستلاب الذاتي والفكري الذي بدأ يعوق

تقدم الإنسان، هذه التساؤلات التي ظهرت ضمن لغة شعرية حملت في طياتها الرغبة في التغيير والتنوير. ولعل البريكان له رأي في أن من واجب ((أية فلسفة مهما تمسكت بالإنسانية ودعت إلى تحرير الإنسان شخصاً ومجتمعاً تحريره من جميع عوامل "الاثرة والأناية والجشع والطمع والاستغلال والاستلاب))⁽¹⁶⁾

ويستحضر الشاعر فاضل العزاوي في قصيدته (سلاماً أيتها الموجة، سلاماً أيها البحر) الوطن بوصفه شخصية سائرة في المنفى، محترقة بالنار: وطني السائر في المنفى محترقا بالنار

لم يرجع

هل ضاع وراء البرية؟

هل جاع كذئب في الرمل؟

هل مات أسيراً في الأغلال؟

ضحك الحراس فلم اسمع غير عويل الريح الوثنية⁽¹⁷⁾

هذه الأسئلة المتكررة أجدتها تدخل ضمن تجاهل العارف، وما كانت تلك التساؤلات إلا تحفيذاً لذهنية المتلقي وتنبهه على ضياع الوطن تحت وطأة السلطة الدكتاتورية، فضلاً عما يحمله السؤال من دلالات تتضمن فقدان الأمل في العودة، فالضياع والجوع والموت والأسر هي صورة الشاعر التي يجدها صورة لوطنه المحترق لاسيما في ذاكرته .

ومن موضوعات الفلسفة المهمة التي شكلت نقطة الالتقاء بين الفلسفة والشعر هو (الإنسان) إلا أنهما اختلفا في طبيعة الاشتغال، وقصيدة (مذكرات الصوفي بشير الحافي) لصالح عبد الصبور تؤكد ذلك من خلال تمظهرات السؤال الفلسفي الذي يتضمن البحث عن الإنسان:

قل لي .. (أين الإنسان .. الإنسان؟)

شيخي بسام الدين يقول:

(اصبر .. سيحييء)

سيهل على الدنيا يوما ركبته)

يا شيخي الطيب!

هل تدري في أي الأيام نعيش؟

هذا اليوم الموبوء هو اليوم الثامن

من أيام الأسبوع الخامس

في الشهر الثالث عشر

الإنسان الإنسان عبر

من أعوام

مضى ولم يعرفه بشر

حفر الحصباء ونام

وتغطى بالآلام⁽¹⁸⁾

النص يقدم التساؤلات ويقدم الإجابة وكلاهما يشكل بنية نصية تثير التأويل وتحتاج إلى وقفة تأملية، فالنص ينطلق من رؤية فلسفية للواقع ولعل السؤالين (أين الإنسان الإنسان) و(هل تدري في أي الأيام نعيش) يوضحان الواقع الذي لا يمت للإنسانية بعلاقة ولا تعد أيامه من الأيام التي يألفها الإنسان، إذ تتشظى من خلال السؤالين مسارات سردية تجسد مجموعة من الأحداث التي توضح الصراع من أجل الوجود، صراع بعيد عن العقلانية. فالشاعر بإجابته يجعل المتلقي أمام سلبيات الإنسان التي جعلته بعيد عن الإنسانية، فالصراع بين العقل والنفس إذا انغمس في الجهل ولد واقعا مشوها وإرادة غير سوية. فالنص يجسد حيرة الشاعر في عالم لوثته الشرور والخطايا، من ظلم وجهل وفقر وفشل وهذا جزء من حبه للحياة وللوطن والإنسانية.

ولا يخفى فإن البحث عن الحياة ومعناها هو الآخر جزء من الموضوعات التي أثارت اهتمام الفلسفة، وهي مشكلة شكلت محورا ومشكلة دارت حولها الكثير من النصوص

الشعرية، كما هو حال الشاعرة لميعة عباس عمارة التي بحثت عن الحياة من خلال سؤالها التأملي الفلسفي وذلك في مقطوعتها (بحث بلا جدوى):

أينَ الهواء؟ دخانُ الزّيفِ يخنقني
أينَ الورودُ فقلبي اليومَ ظمآنُ
أينَ الغذاءُ لنفسي فهي جائعةُ
هيهات أن يُشبعَ الوجدانُ إنسانُ
البحثُ عمّنْ تريد النفسُ أتعني
والياسُ بعدَ عناء البحثِ أضناني⁽¹⁹⁾

تقدم الشاعرة سلسلة من التساؤلات حول الكون وأسراره لتنتقل إلى ذاتها الحائرة والباحثة عن واقعها الذي تريد، فسؤالها عن الحياة (الهواء والورد والغذاء) لم يكن سؤالاً كونياً بحثاً إنما كان سؤالاً عن الحياة يحمل في طياته مشاعرَ خفية مكبوتة ولدها الواقع المزيف الذي تعيشه بكل أعبائه. فهي تبحث عن الوطن في الحياة وتبحث عن الحياة في الوطن، فالغربة التي عاشتها الشاعرة بكل سحرها وجمالها لم تشعرها بالرضا، إذ بقيت ذاكرتها متشبثة بالبحث عن الأرض والحياة التي تطمح إليها.

ويشكل الكون كما ذكرنا محور اهتمام الفلسفة لاسيما دوران الأرض الذي تحاول الشاعرة آمال الزهاوي في قصيدتها (جدران الزئبق) توظيفه ضمن سؤالها الفلسفي للخروج بنصها إلى كشف خبايا النفس:

الدورة مفرغة

ومحيط العالم مبتور

والناس كحبات في مسبحة

تلهث أرجلهم في السور

منذ متى؟

الأرضُ تجنُّ كطاحونة ماء

والعالمُ مبنيٌّ فوقَ نيوب الوحشِ

وأخطاء وكومة

والإنسان تجرّ قواه الصدفة

نفس القاتل والمقتول ورائحة الجثة

الحزنُ كأوتار الارغن

متى تمسسه يصبح⁽²⁰⁾

فقد طرح السؤال قضايا ومشاكل إنسانية تعلقت بحياتها وواقعها، إذ تحاول أن توظف النفوس النائمة وتستفز المتلقي، فبسؤالها عرت حالات الألم والحزن والتشاؤم والآثام، فكان لها رؤية تأملية خاصة للحياة التي افتقدت الأمل والتفاؤل.

فالسؤال الفلسفي يشكل مثيراً لإجابات أكثر عمقاً، وقد بدا وكأنّ النص يسعى لتجسيد الحالة الشعورية التي تمرّ بها الشاعرة ضمن أطر جمالية إذ إن ((الخبرة الجمالية التي تبلغ ذروتها في الشعور، لا تتخلص أبداً من التأمل وإنما تظل في علاقة متبادلة))⁽²¹⁾

ويستدعي الشعر الحديث من الفلسفة سؤالها عن الموت* الذي يعد ظاهرة إنسانية وجدت مع وجود الكون والحياة، وهي ظاهرة شكلت هاجساً، فمنهم من اتخذها موضوعاً ارتبط بالنزعة الذاتية الحزينة للشعراء حتى عدت سمة رومانسية، ومنهم من اتخذها موضوعاً ارتبط بمفهوم النضال والثورة والشهادة والانبعاث، ومنهم من ارتبط الموت عندهم بالغرابة .

ففي قصيدة البياتي (قصيدتان إلى ولدي علي) يرتبط سؤال الموت بالوجود تارة وبالغربة تارة أخرى:

أكذا نموت بهذه الأرض الخراب؟

ويجفّ قنديل الطفولة في التراب؟

أهكذا شمس النهار

تخبو وليس بموقد الفقراء ناز؟(22)

هنا كأن البياتي يقدم فلما قصيرا من خلال السؤال الفلسفي حول الموت الذي يعده معادلا للقنديل الذي جف وقوده، فالسؤال عن الموت جاء بصيغة الاستفهام الإنكاري عبّر (أكذا ، أهكذا) إذ يوهم القارئ وكأنه يعرفه لأول مرة (أكذا نموت)، ومما لا يمكن انكاره، إن الوضع الوجودي للإنسان هو في العمق تعبير عن عجزه أمام الموت الذي يعصف به، فالشاعر بذلك يعكس قلقه من عبثية الحياة وجزعه منها إلى جانب أنه يتوق للمطلق، ولعل رؤية البياتي للموت تختلف عن كثير من الشعراء الذين صوروا الموت على أنه بداية للحياة، إلى جانب الانتصار والخلود كما هو عند السياب ونازك وأمل دنقل وآخرين.

فعلى سبيل المثال نجد أن سؤال الموت عند السياب يرتبط بالانبعاث، وهو أمر لظالما آمن به السياب وجسده في العديد من قصائده، ونجح في ذلك بشكل واضح، كما في قصيدة (المسيح بعد الصلب):

"- أنت؟ أم ذاك ظلي قد ابيض وارفض نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى؟ هو الموت مره

"هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا، فهل كان زورا؟

ذاك ما ظن لما رأي، وقالته نظره(23)

إن الشاعر يؤكد من خلال سؤال الموت، إن الإنسان يحيا بالموت أكثر منه في الحياة، فالموت لا يشكل قلقاً أو خوفاً من النهاية التي ينتظرها كل إنسان، إذ يرى نفسه أشبه بشخصية المسيح التي أحدث موتها الانتصار والخلود، ومن المثير أن نجد سؤال الموت يأخذ الشاعر إلى تساؤل آخر يتعلق بالموروث، وهو تساؤل يحمل عدم التسليم بما يقال، فضلاً عن فرض فكرة الانبعث.

كذلك سعدي يوسف، فإن سؤال الموت مرتبط عنده بالميلاد، كما في قصيدة (رسائل جزائرية) وهي رؤية - كما أراها - مستمدة من السياب:

إلى بلند نولد في الغربية أم نموت؟

أتعرف الأشجار والبيوت

وجوهنا؟ وأنا ... نولد كل ساعة

نموت كل ساعة

وحولنا تولد أو نموت

الناس والأشجار والبيوت؟⁽²⁴⁾

إن مشاعر الغربية أصبحت جزءاً من تجربة الشاعر لاسيما بعد استقراره في الجزائر، إذ بدأت تتعالى آلام الغربية والتأزم والخوف من الآتي، فسؤال الموت يشد المتلقي إلى ثنائية الموت والميلاد التي تتكرر في النص ليحاول أن يثبت انتصاره، وذلك باستدعائه شخصية الشاعر بلند ليوجه له السؤال الإشكالي حول الموت في الغربية، ليؤكد أن موت الشاعر أينما كان هو ميلاد جديد له.

ويعمد الشاعر فوزي كريم إلى تكرار السؤال في قصيدة (كيف ينبني السرو) من خلال تعدد أدوات الاستفهام التي تتوالى في النص لتشكيل إشارات دلالية تعكس خوف الشاعر من الآتي المجهول:

كيف يُبني السرو!

كيف يعيد النخيل الحكاية. والنمل تحت

الفسائل كيف يدبُّ بطيئاً على راحتي

في المهبط الأخير؟!

كيف تقتصر السنوات على حفنة من رمادٍ

بمنفضة الأعزب المستريب وراء الستارة .

من يطرق الباب؟!

كيف استطال النهار ولم تنطفئ جذوة العمر!

كيف استجدت جداول، وانحل عنها إزارُ

الطبيعة! والوردُ عن موعدٍ في القميصِ

المعطر لامرأة الليل. كيف اصطبرث ولم يُنبئ الوردُ!

من قال إن الرحيل امتثالٌ لرائحة البحر! (25)

ينطلق الشاعر من عنوان قصيدته بالسؤال من خلال توظيف الأداة (كيف ينبئني السرو) إذ يشكل العنوان العتبة الأولى للنص، فكان للسؤال دور في إشراك المتلقي مباشرة في فكرة النص وتفسيره، ومن ثمة يتنقل الشاعر بين الأداتين (كيف ومن) الاستفهاميتين، ليعكس عدم استقرار ذاته، فهناك تشابك بين ماضيه/الذاكرة وحاضره المتشائم. وكأن الشاعر يبحث في قرارة نفسه عن المخاطب الذي كان السبب في مصيره ومصير من لجأ للهجرة، فقد حمل السياق آلية تتوخى الزج بالمتلقي في حالة من الرهان وجرفه إلى سياق مناهض لقناعاته. وفي موضع آخر يوظف الأداة (من) التي تتكرر هي الأخرى لتشكيل سمة أسلوبية، فيقول:

((أسأل من وحدَ آمالي وأعطاها مذاقَ الرمل؟

من بعثني جريدةً مبلولةً على رصيفِ الليل؟

من أوهمني براية الهاربِ

بالكاذب؟!

أسأل: من وحدني مجرى بلا مأوى سوى البحر!

ومن فرّقني على شعاب الجبل الأجرد قطعاناً!

ومن ساومني على ردائي؟
وعلى فُتات أهوائي؟
ومن بايعني
خليفةً على المناهات؟
يحلُّ الليلُ
تأوي طرقُ اللاعودةِ الباردةِ الأطرافِ،
أستخرجُ من عتمةِ أدراجي فناعي
وأولي هارباً
في هذه المدينة النائبة...))⁽²⁶⁾

يحاول الشاعر جذب انتباه المتلقي من خلال قوله (أسأل) إلى أن هناك سلسلة من الأسئلة الهجومية التي يتوخى منها الشاعر انتهاك مجال الآخر وإقناعه بفلسفته حول الوجود والمصير، فيحاول بأسئلته المتكررة التي تصدرها الأداة (من) والتي تعكس بحثه عمّن كان السبب في مصيره المتمثل بالهروب خارج بلده، وهي تساؤلات يمكن أن نجعلها ضمن تجاهل العارف، وهي فلسفة أخرى لطبيعة السؤال الذي لا يتطلب إجابة، فالسؤال لوحده كفيلاً بكشف الحقائق. إلا أنه يطالب بتحديد موقع وموقف إزاء ما يعرضه من أسئلة تتعلق بقضيته.

ولا تفوتنا الشاعرة زهور دكسن التي تضع من خلال السؤال فلسفة خاصة لحياة الإنسان وذلك في قصيدتها (الزمن):

ما بين أن نفترضَ الحتمي
أو يُدرجَ فينا الفرض
محتوماً....
وأن نسلكَ هذا الزمنَ المأسورَ
بالأشلاءِ والرهبةِ

ما بين أن نسأل....

من راوع ناب الموت
من منا....

قضى نخبه!

يحضرنا....

وجهاً طفولياً

مدار اليمّ مقروراً...

من الرغبة⁽²⁷⁾

فالشاعرة تحاول من خلال السؤال أن تعكس حيرتها الى جانب فلسفتها للحياة والموت وعلاقتها بالهروب والاستسلام، وكأن الشاعرة بسؤالها تبحث عن معادلة للتوازن النفسي ما بين رغبة الوجود وسطوة الموت، ولعل سؤالها يعد بحثاً يدور حول إمكانيات اخرى خلف المنطوق بمعنى أن هناك قصداً ضمناً غير معلن لتوسيع دائرة التأويل مما يوكد لدى المخاطب كثيراً من الأسئلة حول مقصدية المتكلم.

وعليه فإن السؤال الفلسفي خلق رؤيا جديدة ومستويات تعبيرية حققت وظائف جمالية ودلالية أضفت على الشعر سمة العقلانية نوعاً ما وجرده من التقليدية إلى التغيير أي إننا وجدنا في اعتماد السؤال الفلسفي تغييراً واضحاً في تغيير نمط الإبلاغ داخل النص الشعري الواحد وهذا ما يؤثر على مستويات الخطاب التواصلية.

الخاتمة:

- إن طبيعة السؤال الفلسفي في الشعر العربي الحديث تتضمن وظائف توجيهية وإبلاغية وذلك من خلال ما اتصف به السؤال من انفتاح حرك مسارات التأويل والتفسير فضلاً عن تحفيز المتلقي وشد قدراته الإدراكية في فهم مكنون النص.

- لقد بني السؤال الفلسفي في أغلب الشعر العربي الحديث على الاستفهام والاستدعاء والتداعي والطلب، إذ نجد السؤال ولا نتطلع أو نطمح إلى وجود إجابة نهائية.
- ومما نلاحظه إن الشعر العربي الحديث قد حفل بالأسئلة التي تدور حول الكون والوجود والحياة والموت وذلك لمعرفة ذواتهم من خلال الكشف عن الصراعات التي انعكست على طبيعة السؤال.
- إن ثقافة السؤال الفلسفي شكلت ملمحاً أسلوبياً، راعى الشاعر فيه استحضر حال المتلقي ومدى تحقق الوظيفة التواصلية، حتى شكل السؤال آلية مؤثرة.
- في بعض القصائد ورد فيها الاستفهام الإنكاري، والغرض منه تأجيح الشك والتشهير وخلق الريبة في قلب المتلقي لاسيما حول المواقف السياسية والاجتماعية التي يطرحها الشعراء المحدثون.
- كما رأينا إن العلاقة بين التأمل الفلسفي والخيال الشعري علاقة معقدة ينسجها الخيال والإحساس ليولد نصاً يجمع بين الحتمية الفلسفية التي تدور حول بلاغة الإقناع والاحتمالية الشعرية التي تدور حول التأثير والتأثر.

الهوامش:

- (1) ابن منظور (711هـ)، لسان العرب، دار الكتب العلمية - بيروت، 2005م: 411.
- (2) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، منشورات ذوي القربى - قم، ط 1، 1385هـ: 674/1.
- (3) المصدر نفسه: 675.
- (4) المصدر نفسه: 675.
- (5) أندريه كونت، الفلسفة، ترجمة علي أبو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 2008م: 60.
- (6) المعجم الفلسفي: 675.
- (7) Michel Meyer. " Introduction a Aristote , Rh etorique" op. cit , p. 43

- (8) د. طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة - الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1995م: 11-12
- (9) Manuel Maria Carrilho : Consequences de la Problematologie, op. cit, p. 78
- (10) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط1، 1984م) ج2: 492-493. وكذلك
- The Encyclopediu of Philosophy, Metaphysics, History of Paul.Ed Ward
Volume Five. P290-289.
- (11) احمد زايد: التأويل والظاهرة الاجتماعية، مجلة التسامح، مسقط، عدد11، 2005 م: 23.
- (12) أدونيس، الأعمال الشعرية، دار المدى للثقافة والنشر، لبنان، سوريا 1996م: 98.
- (13) مما لا يخفى أن أدونيس كان منضماً للحزب القومي السوري وهو حزب أضمر للعروبة والاسلام عداوة كبيرة، في حين حمل قناعة تركّز على وحدانية الزعيم والقوة العسكرية، وهذا ما انعكس على قصائده.
- (14) نازك الملائكة، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م: ج 2/ 57-58.
- (15) www.adab.com
- (16) محمود البريكان، الشعرية والفكر حين يستل الشاعر صوته من الصخب اليومي، محمد صالح عبد الرضا، جريدة الزمان، ع1820، في 27/5/2004م: 9.
- (17) فاضل العزاوي، الاعمال الشعرية، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 2007م: 34/1.
- (18) صلاح عبد الصبور، الديوان، دار العودة - بيروت، 1972م: 269 .
- (19) لميعة عباس عمارة، الزاوية الخالية، مطبعة الرابطة، بغداد، 1958م: 18.
- (20) آمال الزهاوي، الطارقون بحار الموت، دار العودة، بيروت، ط1، 1967م: 28-29.
- * إن فكرة الموت لدى الشعراء العرب تختلف باختلاف التفكير والانتماء والدين والواقع، فقد شكل الموت لدى الشعراء الجاهليين معضلة وخوفاً من ضرباته، في حين ارتقى تفكير الشعراء الاسلاميين بالموت لاسيما من كانت له صولات وجولات في الفتوحات الاسلامية، فقد امتلكوا هاجساً روحانياً، جعلتهم يرقبون الموت بشجاعة وجأش هادئ، أما من لم تكن له حظوة بالمشاركة في الحروب لم يكن له هاجساً وجدانياً وحساً إنسانياً؛ وهذا بسبب بعدهم عن الاسلام والانتماء إليه. ينظر: عبد الرزاق خليفة، هاجس

- الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1997م: 225.
- (21) سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت، ط1، 1992م: 295.
- (22) عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الحرية للطباعة و النشر، بغداد، ط2، 2001م: 65.
- (23) بدر شاكر السياب، الديوان، دار العودة - بيروت، 1971م: 459.
- (24) سعدي يوسف، الديوان، المجلد الاول، دار العودة، بيروت ط 3، 1988م: 333-334.
- (25) فوزي كريم، الأعمال الشعرية، دار المدى، ط1، دمشق 2001 م: ج1/ 298 - 299.
- (26) فوزي كريم: ج1/ 82 - 83.
- (27) زهور دكسن، في كل شيء وطن، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979م: 80.